مجلة العلوم الإنسانية المجلد22 / العـدد: 02 (2022)، ص 599- 613

الآليات الإقناعية في القصة القرآنية قصة موسى عليه السلام والبقرة أنموذجا

Convincing Mechanisms in the Quranic Story: The story of Moses (Peace be Upon Him) and the Cow as a Model

نورة بن حمزة

جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر) ، noura.benhamza@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2022/03/31 تاريخ القبول: 2022/11/07 تاريخ النشر: 2022/11/14

الملخص:

إن التأثير في الآخر وإقناعه يتطلب منا إقامة الحجة، لأن الحوار دون حجج قوية تدعم رأي المحاور، يؤدي حتما إلى قطع جسور التواصل بين طرفي العملية التحاورية.

وتختلف طريقة إلقاء القول باختلاف الصيغ والأساليب، وبتعدد الأغراض والمقاصد، وذلك باتباع آليات خطابية معينة، وطرق تعبيرية مختلفة تمكننا من التعبير عن الغرض المقصود بكيفية تتجاوز مجرد التبليغ والإفهام إلى مستوى التبيان والتأثير في المتلقي، وإقناعه بالطرق السلمية في جو يسوده الهدوء، والابتعاد عن التعصب والإكراه.

الكلمات المفتاحية: الاقناع؛ القصة؛ الحوار؛ التواصل؛ التفاعل.

Abstract:

Influencing and convincing the other requires us to establish the argument because dialogue without strong arguments that support the opinion of the interlocutor, inevitably leads to communication breakdown between the two parts of the dialogue process.

The way of delivering the speech varies according to different forms and methods, and with multiple purposes and intentions, by following certain rhetorical mechanisms, and different expressive methods that enable us to express the intended idea in a way that goes beyond mere notification and understanding to the level of clarification and influence on the recipient. Also, we try to convince the receipient using peaceful means in an atmosphere full of calm avoiding any sort of fanaticism and coercion.

Keywords: Conviction; the Story; Dialogue; Communication; Interaction

المؤلف المرسل: نورة بن حمزة، **الإيميل:** noura.benhamza@univ-biskra.dz

1. مقدمة

يقول طه عبد الرحمن: « إن الخطاب "التحاوري" بنيان من طبقات تتعدد بتعددها ذوات المتحاور، وتختلف باختلافها وظائفه الخطابية»(عبد الرحمان، 2000، صفحة 53)، وبهذا يستطيع المتحاور أن يملك آليات للتوجيه والتأثير، وأن يفتح العديد من الاتجاهات الخطابية. (المرجع نفسه، ص 55)

وقد حضَّ القرآن الكريم على مراعاة بعض القواعد التخاطبية صراحة، في أكثر من موضع،وذلك بالدعوة إلى تهذيب القول، فقد رسم الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بعضا من الآليات ليتبعها في دعوته مع كفار قريش(الشهري، 2004، صفحة 92)، فقال الله تعالى: [ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ] النحل25.

ففي هذه الآية ثلاث آليات للدعوة، تتدرج في استعمال الخطاب وفقا لمراعاة سياق الدعوة. وعنصر العلاقة بين رسول الله صلى عليه وسلم وبين كفار قريش، هي من عناصر سياق الدعوة، بغض النظر عن نوعها؛ إذ يراعي أحوالهم بما ينعكس على اختيار آلية الخطاب المناسبة (المرجع نفسه، ص 92)، «على هذه الأسس يرسي القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها، ويعين وسائلها وطرائقها... والدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق...، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها... وبالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب،... فإن الرفق في الموعظة كثيرا ما يهدي القلوب الشاردة،... وبالجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق،... ... وهذا هو منهج الدعوة ودستورها، مادام الأمر في دائرة الدعوة باللسان والجدل بالحجة»(قطب، 1985، الصفحات 2201-2202).

وقد استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم عبارة «ما بال أقوام»(أبو داود، دون سنة، الصفحات 2-180)في خطابه،إذ استعمل لفظ النكرة، ليدل بها على أقوام ارتكبوا مخالفة شرعية، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُرِدْ التشهير بهم، بل اتخذ من فعلهم مثالا

لوعظ المسلمين، دون فضح من ارتكب المخالفة منهم، وفي هذا ما يدل على مراعاة أحوال الناس، وقد تداولها الناس من بعده في خطاباتهم، فدرجت عليه العادة باستعمال تلك الخصيصة اللغوية علامة على إستراتيجية الخطاب وبمراعاة العلاقة التخاطبية بين المرسل وبين المرسل إليه.(الشهري، 2004، صفحة 93)

لقد كان أسلوب النبي محمد صلى الله عليه و سلم في طريقة الحوار مع خصومه، مثلا رائعا على حيوية القاعدة الإسلامية في أسلوب الحوار، ومرونتها... وقد كانت مسيرة الدعوة في الممارسة الرسالية خاضعة في خطوطها العامة والخاصة لحركة النبي، فقد كان هو الذي يتولى عملية خلق الجو الطبيعي للحوار وإدارته، ودفع الدعوة إلى أن تتحرك في إطاره، وبذلك كانت سيرته تجسيدا عمليا لكل القواعد العامة في الفكرة والأسلوب.(فضل الله ، دون سنة، الصفحات 1-55)

فالحوار عنصر أساسي من عناصر حركة العقيدة في اتجاه الكمال... ...حتى في يوم القيامة، لا يقف الإنسان مكتوف اليدين أمام مصيره، بل يترك له مجال الدخول في حوار وجدال يدافع به عن نفسه على أساس من العدالة التي تحترم في الإنسان حقه الطبيعي في الدفاع عن نفسه، حتى أمام الله الذي يعلم كل شيء ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (المرجع نفسه، 30/1، 31)، وذلك في قوله تعالى:[يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ]النحل111.

وخلاصة القول:«إن الإسلام يريد للإنسان أن يحصل على القناعة الذاتية المرتكزة على الحجة والبرهان في إطار الحوار الهادئ العميق، سواء في ذلك قضايا العقيدة وقضايا الحساب والمسؤولية، فلكل سؤال جواب، ولكل علامة استفهام تواجه الإنسان في الطريق، علامات في كل منعطف تشير إلى سواء السبيل، وهذا هو الأساس الإسلامي في اعتبار الحوار قاعدة أساسية في دعوته الناس إلى الإيمان بالله وعبادته».(المرجع نفسه، 31/1، 32)

والقرآن الكريم« يحفل بالحوار، فهو يبني به المواقف والوقائع، ويقرر التوجيهات ويعرض القضايا، لذلك نراه يلقن صيغه للفواعل(الرسل) كي يتجاوزوا منطق الجحود الذي يعيق دعوتهم عن الذيوع».(عشراتي، 1998، صفحة 187)

ويقتضي "أسلوب المحاورة في القرآن الكريم" مجاوبة بالكلام بين طرفين – في الغالب– يبدأ كل منهما يسوق أدلته وحججه، بطرائق تعبيرية متنوعة، ثم تنتهي بانتصار دليل الحق الواضح وبرهان التوحيد الساطع الذي من شأنه أن يرشد إلى سبيل الإيمان بالله.(إسماعيل، دون سنة، صفحة 12)

وعليه فإن « للحوار وظيفة بنائية، تضيء الحدث»(عشراتي، الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي ، 2010، صفحة 186)، وهو فعل من الأفعال، به يزداد المدى النفسي عمقا، ويحتدم الصراع ويتأزم الموقف، الأمر الذي يبعث الحركة والحيوية في فنية القصة القرآنية(الدالي، 1993، صفحة 245)، فالعلاقة الحوارية في القصة القرآنية تؤطر القصة، وتشيع فيها حيوية سردية، تجعل من الموضوع القصصي بنية واضحة المعالم حيال ذهن المتلقي، يتملاها من سائر جوانبها من خلال وظيفة الحوار الكشفية(عشراتي، الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي ، 2010، صفحة 185).

فالحوار هو محرك الأحداث، ومصور للشخصيات... ومؤد إلى الهدف ومظهر للمغْزى. ولقد كان في القصة القرآنية على صور وأشكال، فقد يكون على صورة حوار ذاتي بين الشخص وعقله أو قلبه كما في قصة إبراهيم، وهو ينظر إلى الكوكب والقمر والشمس ويفتش عن إلهه، وقد يكون بين شخصيتين كما في حوار إبراهيم مع أبيه أو قومه، وقد يكون بين الشخصية وعنصر آخر كالجن، أو الطير أو الشيطان، وقد يكون بين الخالق والمخلوق، أو بين النبي وقومه وهكذا.(أمين، 1979، صفحة 223)

على أن هناك ملاحظة أساسية في طبيعة الحوار بمجمله وعلى مختلف ضروبه، وهي أنه لا يوضع على ألسنة الشخصيات، وإنما ينطلق منها انطلاقا طبيعيا أو تلقائيا دون أن يحس القارئ بشيء من آثار الصنعة أو التكلف (المرجع نفسه، ص 223)، لأنه كلام الله عز وجل القادر على كل شيء.

وليس من الضروري أن يوجد الحوار في كل قصة، فقد تخلو منه القصة وتمضي على أنها صورة لشخص أو رسم لحادثة، وهذا هو الغالب في القصص القصيرة. ثم هذا هو الأمر الذي مضى عليه القرآن الكريم في كثير من قصصه الذي يقصد فيه التخويف.(خلف الله، 1965، صفحة 301)

لكنا- مع كل هذا- نجد كثيرا من القصص القرآني كان الحوار فيه عنصرا مهما- إن لم يكن العنصر البارز- وهو موجود على كل حال في كل قصة تعدد تشخصياتها، وذلك من مثل قصة يوسف وقصة موسى في طه وقصة آدم في الأعراف، ثم في مجموعات قصص سورتي هود والشعراء وفي قصة إبراهيم في سورة مريم، وفي غيرها من القصص الذي يراد به التثبيت أو شرح مبادئ الدعوة الإسلامية. (المرجع نفسه، ص 302)

ولما للقصص من أثر فعال في النفوس، وجذب لانتباهها،...وتشويق وتلهف لمعرفة النهاية، وارتياح لحل العقدة والصراع، وحب تشوف للاستطلاع، لجأ القرآن إلى الأسلوب القصصي، فالتقى الغرض الديني بالغرض الفني، لأن القصة صورة من صور البيان العربي.(الدالي، 1993، صفحة 18)

ولهذا فإن «اعتماد القصة في غرس تقنيات الكلام، وتعليم أساليب القول طريق تربوي مأمون النتائج، ومنهج تعليمي ناجح، إذ أثبتت التجارب التربوية والبحوث العلمية قدرة القصة على غرس المفاهيم في غير علم من العلوم، وغير مستويات تعليمية تربوية، وذلك لأخذها في الاعتبار الأصول النفسية للمتعلم، ومراعاة العواطف والانفعالات»(كشاش، 2000، الصفحات 30-31). وهذا يجعل المتعلم منفعلا مع المعلم؛ لأن في القصة تسلية وترويح عن النفس، وتدفع الملل من نفوس المتعلمين، وبالتالي يكون التعليم والتعلم ناجحا.

إذا « فلا غرابة أن نجد القصة في القرآن، بوصفها واسطة بيانية تبليغية لناموس سماوي، غايته تجذير العقيدة، وتوطيد نظام حياة متكامل للإنسانية، وتغيير ما بالنفوس من جهالة، وشرك وعبودية، نزعت منزعا واقعيا، فصدرت في الأغلب عن مرجعيات تاريخية، ارتبطت بسير الأنبياء، والرسل في أزمان غابرة، وبأخبارهم، وصراعاتهم من أجل رسالات الله،... ... فالصدق التاريخي معيار حرص القرآن على إثباته وتأكيده، المرة تلو المرة».(عشراتي، الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي ، 2010، صفحة 67)

ولقد ظل الخطاب القرآني يمارس فاعليته التبليغية بمنطق توصيلي، يرتكز على عقلنة المعطيات في افتراضها، وفي طرحها، فكان له من ثمة فاعلية المحاورة، وربط الصلة الفكرية والروحية مع المتلقي، واسطة تبليغ نافذة وأساسية. (المرجع نفسه، ص 181)

ولهذا فإن« القصة القرآنية تأخذ حيويتها من خلال ظاهرة تعدد الأصوات التي تشكل شبكة الحوار فيها. وإذا كان منطلق الحوار مرده هو الله، بحكم صدور الأمر بالدعوة عنه، فإن الفاعل المرسل، يظل واسطة تبليغية حوارية بين هذا المصدر الإلهي، وبين المرسل إليهم"قومه"» (المرجع نفسه، ص 184).

وطريقة القرآن في تصوير الحوار تقوم على أساس الرواية، فيحكي القرآن أقوال الأشخاص ويصدرها بقوله قال أو قالا أو قالوا. هذا التصدير يلفت ذهننا إلى أمر خاص بالحوار في القصص القرآني، هو أنه ليس من اللازم أن يقوم الحوار بين اثنين، فقد يكون بين كثرة، وكل هذه الأمور ملحوظة في القصص القرآني، فيكون الحوار بين اثنين كالحوار بين إبليس وآدم، وبين إبراهيم وأبيه وبين موسى وفرعون. ويكون بين واحد من طرف واثنين من طرف آخر، كما هو واضح في قصة موسى في سورة طه،فقد كان موسى وهارون الركن الثاني من أطراف المحاورة. وقد يكون بين واحد من طرف وجماعة من طرف آخر، كالحوار الواقع في أكثر القصص القرآني بين الرسل وأقوامهم.(خلف الله، 1965، صفحة 303)

فالخطاب القرآني خطاب توصيلي، لذلك كان الحوار من أبرز فعالياته التبليغية(*)، وتواتر فعل "قال" "قُل" "قالوا" في النص القرآني...المحيلة على المتخاطبين، دليل على أهمية هذه الوسيلة التقريرية القرآنية القائمة على الحوار(عشراتي، الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي، 1998، صفحة 185)؛ لأن الحوار في أساسه يقوم على القول والكلام والتخاطب بين المتحاورين.

والآن سنحاول استعراض جوانب الحوار في قصة البقرة التي وردت في سورة البقرة، وذلك من خلال الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وبين بني إسرائيل، وسنكشف من خلاله ذلك التعنت من طرف بني إسرائيل الذي بدا واضحا في القصة، من خلال تكرارهم لتلك الأسئلة الموجهة إلى موسى عليه السلام، ولكن نقول: إن الاقتناع بالفكرة، وبأي أمر، غير مرتبط بالحجة والبرهان، بل مرتبط بالقابلية النفسية للاقتناع، أي قابلية الشخص ليقتنع، لكن هيهات أن يقتنع قلب عنيد مريض من الوهلة الأولى.

لقد جاءت قصة البقرة « مفصلة وفي صورة حكاية، لا مجرد إشارة، ذلك أنها لم ترد من قبل في السورة المكية، كما أنها لم ترد في موضع آخر، وهي ترسم سمة اللجاجة والتعنت والتلكؤ في الاستجابة، وتمحل المعاذير، التي تتسم بها إسرائيل. وفي هذه القصة

القصيرة-كما يعرضها السياق القرآني- مجال للنظر في جوانب شتى، جانب دلالتها على طبيعة بني إسرائيل وجبلتهم الموروثة. وجانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة، ثم جانب الأداء الفني في عرض القصة بدءا ونهاية واتساقا مع السياق».(قطب، 1985، صفحة 77/1)

إن السمات الرئيسية لطبيعة إسرائيل تبدو واضحة في قصة البقرة هذه: انقطاع الصلة بين قلوبهم، وذلك النبع الشفيف الرقراق: نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل، ثم التلكؤ في الاستجابة للتكاليف، وتلمس الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان! (المرجع نفسه، ص 77/1)

ولقد افتتح الحوار في هذه القصة بأمر من الله سبحانه وتعالى بذبح البقرة: [وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً]البقرة67.

فأدنى تأمل لهذه الآية يقودنا إلى القول: إن ذبح البقرة هو أمر من الله وليس أمر من موسى-عليه السلام-: «وكان هذا القول بهذه الصيغة يكفي للاستجابة والتنفيذ. فنبيّهم هو زعيمهم الذي أنقذهم من العذاب المهين، برحمة من الله ورعاية وتعليم؛ وهو ينبئهم أن هذا ليس أمره وليس رأيه، إنما هو أمر الله، الذي يسير بهم على هداه. فماذا كان الجواب؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب، واتهاما لنبيهم الكريم بأنه يهزأ بهم ويسخر منهم !»(المرجع نفسه، ص 77/1).

إذن، كان جوابهم سفاهة وسوء أدب:[قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً]البقرة67.

وهو استفهام على سبيل الإنكار(*). وإجابتهم نبيهم حين أخبرهم عن أمر الله بأن يذبحوا بقرة بقولهم: (أتتخذنا هزؤاً)، دليل على سوء عقيدتهم في نبيهم وتكذيبهم له، إذ لو علموا أن ذلك إخبار صحيح عن الله تعالى لما كان جوابهم إلا امتثال الأمر، وجوابهم هذا كفر بموسى-عليه السلام-(الأندلسي، دون سنة، الصفحات 414/1-415).

وكان رد موسى-عليه السلام- على هذه السفاهة أن يستعيذ بالله، وأن يردهم برفق، وعن طريق التعريض والتلميح، إلى جادة الأدب الواجب في جانب الخالق جلّ علاه؛ وأن يبين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بجاهل بقدر الله، لا يعرف ذلك الأدب ولا يتوخاه(قطب، 1985، صفحة 78/1):[أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ]البقرة67.

ويفضي بنا هذا إلى القول: إن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتلطف في الحوار – حتى مع الكفار– واستثنى حالة إذا ما ظلموا، فلا ينفع معهم الرفق واللين، وبالتالي اللجوء إلى الغلظة والقسوة. قال تعالى:[وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ]العنكبوت46.

وقال أيضا:[لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ]النساء148.

فلا بدّ للمحاور أن يدقق ألفاظه ويراعي كل عبارة يتفوه بها، واستعمال أسلوب التعريض والتلميح بدلا عن التصريح؛ أي تجنب اللوم المباشر، وعدم تخطئة الطرف الآخر بعبارة صريحة، كل ذلك من أجل تسليم الخصم للحق والرجوع إلى جادة الصواب، فالنفس الإنسانية لا تتحمل أن تواجه بشدة وصرامة، ومن هنا فعلينا اللجوء إلى أسلوب اللين واستعمال الكلمات اللطيفة، وبالتالي ضمان استمرار التحاور بين طرفي العملية التواصلية.

قال أبو حيان:« لما فهم موسى–عليه السلام– عليه السلام عنهم أن تلك المقالة التي صدرت عنهم إنما هي لاعتقادهم فيها أنه أخبر عن الله بما لم يأمر به استعاذ بالله... إذ الإخبار عن الله تعالى بما لم يخبر به الله إنما يكون ذلك من الجهل بالله تعالى، وقوله من الجاهلين فيه تصريح أن ثم جاهلين واستعاذ بالله أن يكون منهم، وفيه تعريض أنهم جاهلون وكأنه قال: أن أكون منكم»(الأندلسي، دون سنة، صفحة 415/1).

وكان في هذا التوجيه (قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) كفاية ليثوبوا إلى أنفسهم، ويرجعوا إلى ربهم، وينفذوا أمر نبيهم، ولكنها إسرائيل ! نعم. لقد كان في وسعهم – وهم في سعة من الأمر– أن يمدوا أيديهم إلى أية بقرة فيذبحوها، فإذا هم مطيعون لأمر الله، منفذون لإشارة رسوله. ولكن طبيعة التلكؤ والالتواء تدركهم، فإذا هم يسألون(قطب، 1985، صفحة 78/1):[قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لّنَا مَا هِيَ]البقرة68.

والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكهم أن يكون موسى–عليه السلام– هازئا فيما أنهى إليهم ! (المرجع نفسه، 78/1)

وتقدم معنى قولهم ادع لنا ربك، كيف خصوا لفظ الرب مضافا إلى موسى–عليه السلام– وذلك لما علموا له عند الله من الخصوصية والمنزلة الرفيعة(الأندلسي، دون سنة، صفحة 416/1).

فهم أولا: يقولون: «ادع لنا ربك». فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك! وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى-عليه السلام- وربه ! وهم ثانيا: يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم: «ما هي؟». والسؤال عن الماهية في هذا المقام- وإن كان المقصود الصفة- إنكار واستهزاء(*). ما هي؟ إنها بقرة، وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولا سمة. بقرة وكفى !(قطب، 1985، صفحة 78/1)

وهنا كذلك يواجههم موسى-عليه السلام- بالأسلوب اللين الكريم دون جرح لمشاعرهم أو إشعارهم بالذل، إذ « يردهم موسى-عليه السلام- إلى الجادة، بأن يسلك في الإجابة طريقا غير طريق السؤال. إنه لا يجبههم بانحرافهم في صيغة السؤال كي لا يدخل معهم في جدل شكلي، إنما يجيبهم كما ينبغي أن يجيب المعلم المربي من يبتليه الله بهم من السفهاء المنحرفين، يجيبهم عن صفة البقرة» (المرجع نفسه، ص 78/1).

فدعا موسى-عليه السلام- ربه فأجابه:[قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ]البقرة68.

إنها بقرة لا هي عجوز ولا هي شابة(**)، وسط بين هذا وذاك(قطب، 1985، صفحة 78/1)، إنها صفة لبقرة، والصفة إذا كانت منفية بـ لا، وجب تكرارها(الأندلسي، دون سنة، صفحة 416/1)، كما قال: وفِتيَانِ صِدْقٍ لا ضعافٍ ولا نُكْل(قطب، 1985)(أبو الفضل، 1997، صفحة 91/2).

ثم يعقب على هذا البيان المجمل بنصيحة آمرة حازمة(قطب، 1985، صفحة 78/1):[فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ]البقرة68. أي من ذبح البقرة، ولا تكرروا السؤال، ولا تعنتوا في أمر ماأمرتم بذبحه، ويحتمل أن تكون هذه الجملة من قول الله، ويحتمل أن تكون من قول موسى-عليه السلام-، وهو الأظهر حرضهم على امتثال ما أمروا به شفقة منه(الأندلسي، دون سنة، صفحة 417/1).

وكي تكون عملية الاتصال ناجحة مع الآخرين، لا بدّ من توافر عدة صفات في الشخص الذي يريد أن يتواصل مع الطرف الآخر، هذه الصفات تؤهله إلى مد جسور التواصل مع محاوره، ونذكر أهم هذه الصفات: الرحمة والشفقة، هذه الصفة التي اتصف بها الأنبياء والرسل، فموسى-عليه السلام- أشفق على قومه حين أمرهم على امتثال ما أمروا به، وهو ذبح البقرة: (فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ).

فالرحمة(*) سمة أساسية في اتصالك مع الآخرين، وهي أن تحب الخير للناس وتراعي مشاعرهم وظروفهم وأحوالهم، يقول الله تعالى مخاطبا نبيه الكريم[وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ]الأنبياء107.

وعلى هذا فالمحاور المسلم الصادق يجب أن يسعى ويحرص على إظهار الحق، ويشفق على خصمه، لإنقاذه من الضلال.

يقول سيد قطب:« ولقد كان في هذا كفاية لمن يريد الكفاية؛ وكان حسبهم وقد ردهم نبيهم إلى الجادة مرتين، ولمح لهم بالأدب الواجب في السؤال وفي التلقي، أن يعمدوا إلى أية بقرة من أبقارهم، لا عجوز ولا صغيرة، متوسطة السن، فيخلصوا بها ذمتهم، وينفذوا بذبحها أمر ربهم، ويعفوا أنفسهم من مشقة التعقيد والتضييق، ولكن إسرائيل هي إسرائيل !»(قطب، 1985، صفحة 78/1).

فلقد طلبوا من موسى-عليه السلام- أن يدعو ربه ليبين لهم لونها:[قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا] البقرة69.

لقد كرروا نفس الصيغة مرة ثانية «أُدع لنا ربك»! كأنه رب موسى-عليه السلام- وحده، وليس ربهم جميعا، وهذا ما يحيلنا إلى طبيعة بني إسرائيل التي تتسم بالتعنت والمكابرة والتلكؤ في الاستجابة لأوامر الله وأوامر أنبيائهم.

يقول أبو حيان: «لما تعرفوا سن هذه البقرة، شرعوا في تعرف لونها، وذلك كله يدل على نقص فطرهم وعقولهم، إذ قد تقدم أمر الله لهم بذبح بقرة، وأمر المبلغ عن الله الناصح لهم المشفق عليهم بقوله: فافعلوا ما تؤمرون، ومع ذلك لم يرتدعوا عن السؤال عن لونها، والقول في ادع لنا ربك، وفي جزم يبين، وفي الجملة المستفهم بها»(الأندلسي، دون سنة، صفحة 417/1).

لقد ضيقوا على أنفسهم وطلبوا التفصيل، ولكن موسى-عليه السلام- يرد عليهم بالأسلوب اللين، وعاملهم معاملة حسنة، ولم يراع إلى تعنتهم ومكابرتهم، هذا كله من أجل ضمان استمرار عملية التواصل بين الطرفين(موسى-عليه السلام-، وبنو إسرائيل)، لأن الغلظة والقسوة تنفر الخصم، وبالتالي إنهاء الحوار، وقطع جسور التواصل، وعلى ذلك يكون الاتصال لا التواصل سبيل ذلك.

وهنا أتاهم الجواب:[قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ] البقرة69.

ويمكن القول بأنهم: «ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار– وكانوا من الأمر في سعة– فأصبحوا مكلفين أن يبحثوا لا عن بقرة، مجرد بقرة، بل عن بقرة متوسطة السن، لا عجوز ولا صغيرة، وهي بعد هذا صفراء فاقع لونها؛ وهي بعد هذا وذلك ليست هزيلة ولا شوهاء «تسر الناظرين». وسرور الناظرين لا يتم إلا أن تقع أبصارهم على فراهة وحيوية ونشاط والتماع في تلك البقرة المطلوبة؛ فهذا هو الشائع في طباع الناس: أن يعجبوا بالحيوية والاستواء ويسُرُّوا، وأن ينفروا من الهزال والتشوية ويشمئزوا»(قطب، 1985، صفحة 78/1، 79).

ورغم الدلائل والبراهين التي أراها الله سبحانه وتعالى لهم، إلا أنهم لم ينفِّذوا ما أمروا به؛ بل راحوا يعقدون الأمور، ويشددون على أنفسهم، فشدد الله عليهم، حيث أعادوا طرح السؤال عن الماهية:[قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ]البقرة70.

ونجدهم في الأخير يعتذرون عن هذا السؤال ويعللون تكرارهم له:[إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا]البقرة70.

وكأنما استشعروا لجاجتهم هذه المرة، فهم يقولون(قطب، 1985، صفحة 79/1): [وَإِنَّا إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُون]البقرة70. أي لمهتدون إلى عين البقرة المأمور بذبحها، وفي تعليق هدايتهم بمشيئة الله إنابة وانقياد ودلالة على ندمهم على ترك موافقة الأمر،... وجاء الكلام مؤكدا بحرفي التأكيد: إن واللام، ولم يأتوا بهذا الشرط إلا على سبيل الأدب مع الله تعالى، إذ أخبروا بثبوت الهداية لهم وأكدوا تلك النسبة، ولو كان تعليقا محضا لما احتيج إلى تأكيد. فقوم موسى–عليه السلام– مع غلط أفهامهم وقلة عقولهم كانوا أعرف بالله وأكمل توحيدا من المعتزلة، لأنهم قالوا: وإنا إن شاء الله لمهتدون.(الأندلسي، دون سنة، صفحة 419/1، 420)

ويجيبهم موسى–عليه السلام– على سؤالهم الأخير بنفس الأسلوب الذي اعتمده في الإجابة على الأسئلة الأولى؛ فالتلطف في القول والحوار الهادئ سببان في إقناع واقتناع المخاطَب بالفكرة المراد إيصالها له.

قال تعالى:[قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا]البقرة71.

وهكذا لم تعد بقرة متوسطة العمر، صفراء فاقع لونها فارهة فحسب، بل لم يعد بد أن تكون– مع هذا– بقرة غير مذللة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقي الزرع، وأن تكون كذلك خالصة اللون لا تشوبها علامة.(قطب، 1985، صفحة 79/1)

وبعد هذا التعنت والتلكؤ، اعترفوا في الأخير بأن موسى–عليه السلام– جاء لهم بالحق،«لأنه في كل محاورة حاورها معهم جاء بالحق، فلو لم يقدر هذا الوصف لما كان لتقييدهم مجيئه بالحق»(الأندلسي، دون سنة، صفحة 422/1). وفي هذا قال تعالى:[قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ]البقرة71.

الآن! كأنما كان كل ما مضى ليس حقا، أو كأنهم لم يستيقنوا أن ما جاءهم به هو الحق إلا اللحظة(قطب، 1985، صفحة 79/1)[!فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ]البقرة71.

عندئذ– وبعد تنفيذ الأمر والنهوض بالتكليف– كشف الله لهم عن الغاية من الأمر والتكليف. وهنا نصل إلى الجانب الثاني من جوانب القصة، جانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة (المرجع نفسه، 79/1). قال تعالى:[وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ]البقرة73،72.

وأخيرا نجيء إلى جمال الأداء وتناسقه مع السياق، فهذه قصة قصيرة نبدأها، فإذا نحن أمام مجهول لا نعرف ما وراءه، فنحن في بداية عرض القصة لا نعرف لماذا أمر الله بني إسرائيل بذبح البقرة، كما أن بني إسرائيل لم يعرفوا ذلك، وفي هذا اختبار لمدى الطاعة والاستجابة والتسليم. ثم تتابع الحوار بين موسى–عليه السلام– وقومه، فلا نرى الحوار ينقطع ليثبت ما دار بين موسى–عليه السلام– وربه؛ على حين أنهم كانوا في كل مرة يطلبون منه أن يسأل ربه، فكان يسأله ويجيبهم، ولكن سياق القصة لا يذكر أنه سأل ربه وأجابه، فهذا السكوت هو اللائق بعظمة الله، التي لا يجوز أن تكون في طريق اللجاجة التي يزاولها بنو إسرائيل ! وتنتهي القصة في الخاتمة إلى المباغتة؛ انتفاض الميت مبعوثا ناطقا، على ضربة من بعض جسد لبقرة بكماء مذبوحة. ومن ثم يلتقي جمال الأداء التعبيري

بحكمة السياق الموضوعية في قصة قصيرة من القصص القرآني الجميل. (المرجع نفسه، ص 80/1)

ويتضح بموجب ما سلف أن افتتاح الحوار في هذه القصة كان أمرا من الله عزّ وجلّ:[وَإِذْ قَالَ موسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً]البقرة67. واختتم الحوار فيها بتهديد الله سبحانه وتعالى لبني إسرائيل بعدم غفلته عما كانوا يعملون، قال تعالى: [وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ]البقرة74.

ويتبين أن «هذا فيه وعيد، وذلك أنه لما قال ثم قست قلوبكم من بعد ذلك أفهم أنه ينشأ عن قسوة القلوب أفعال فاسدة، وأعمال قبيحة من مخالفة الله تعالى، ومعاندة رسله»(الأندلسي، دون سنة، صفحة 433/1).

ونلحظ وفقا لما أوردناه، أن الحوار الذي دار بين موسى–عليه السلام– وقومه يتسم بعدة سمات؛ إنها آليات جعلت الحوار يستمر بين المتحاورين، واقتناع الطرف الآخر (القوم) برأي محاوره (موسى–عليه السلام–):

1- الهدوء وتجنب الانفعال الفوري، وهذا عامل مهم في التواصل. هذه الصفة التي اتصف بها موسى–عليه السلام–، جعلت الحوار يستمر بينه وبين قومه الذين اقتنعوا بما أمروا به (ذبح البقرة).

2- الرحمة والشفقة– كما سبق أن أشرنا– فالرحمة والشفقة أدب مهم جدا أثناء التحاور، إذ القسوة والشدة من الأسباب التي تؤدي إلى انقطاع التواصل بين المتحاورين.

تقبل رسالة الآخر والرد عليها، فقد كان موسى–عليه السلام– يرد على طلبات بني إسرائيل ويجيبهم على أسئلتهم بعد أن يسأل موسى–عليه السلام– ربه.

2. الإحالات

(*) إن مصطلح التحاور يستعمل عادة لتعيين تبادل كلامي في جو عائلي فقط، فالتحاوريون الأمريكان يستعملونه لتعيين كل تواصل شفوي تتوزع فيه الأدوار، أدوار الكلام. إن موضوع التحليل التحاوري هو تحليل أحداث التواصل اليومي(تناول وجبة عائلية، السؤال عن الطريق...)، وأحداث التواصل أثناء تمرين وظيفة(استشارة، امتحان، حل نزاع،...)، أو في

إطار مؤسسة(مدرسة، مستشفى، محكمة...). ينظر: رايص نور الدين، نظرية التواصل واللسانيات الحديثة، مطبعة سايس، فاس، ط1، 2007، ص270، 271.

(*) وقيل هو استفهام حقيقة ليس فيه إنكار، وهو استفهام استرشاد لا استفهام إنكار (ينظر: أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف)، تفسير البحر المحيط، دارسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001، 415/1).

(*) وقيل: إنما سألوا على طريق التعنت، أو على طريق التعجب من بقرة ميتة يضرب بها ميت فيحيا إذ ذاك في غاية الاستغراب والخروج عن المألوف، أو على طريق أنهم ظنوا قوله أن تذبحوا بقرة من باب المجمل، فسألوا تبيين ذلك إذ تبيين المجمل واجب، أو على رجاء أن ينسخ عنهم تكليف الذبح لثقل ذلك عليهم، لكونهم لم يعلموا المعنى الذي لأجله أمروا بذلك، وقيل: إنما سألوا موسى–عليه السلام– استرشادا لا عنادا. (ينظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 416/1).

(**) الفارض المسن التي انقطعت ولادتها من الكبر، والبكر الصغيرة التي لم تلد من الصغر، وقال ابن قتيبة التي ولدت ولدا واحدا، والبكر من الأولاد الأول، ومن الحاجات الأولى. والعوان النصف، وهي التي ولدت بطنا أو بطنين، وقيل التي ولدت مرة. (ينظر: أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، 411/1، 412، وينظر لسان العرب).

(*) للتوسع ينظر: محمد هشام أبو القمبز، فن التواصل مع الآخرين، ص 13.www.saaid.net/book/8/1575.doc

3. المصادر و المراجع

1. أبو حيان الأندلسي. (دون سنة). تفسير البحر المحيط. دون بلد.
2. أبو داود. (دون سنة). سنن أبي داود. دون بلد: دار الرسالة العالمية.
3. بكري شيح أمين. (1979). التعبير الفني في القرآن. بيروت: دار الشروق .
4. جمال الدين محمد بن مكرم أبو الفضل. (1997). لسان العرب. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.
5. سليمان عشراتي. (2010). الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي . عمان: دار زهران للنشر والتوزيع.
6. سليمان عشراتي. (1998). الخطاب القرآني مقاربة توصيفية لجمالية السرد الإعجازي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
7. سيد قطب. (1985). في ظلال القرآن. بيروت: دار الشروق.
8. طالب محمد إسماعيل. (دون سنة). أساليب المحاورة في القرآن الكريم. دون بلد.
9. طه عبد الرحمان. (2000). في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. المغرب: المركز الثقافي العربي.
10. عبد الهادي بن ظافر الشهري. (2004). إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية. لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
11. محمد حسين فضل الله . (دون سنة). الحوار في القرآن الكريم، قواعده، أساليبه، معطياته. قسنطينة: دار المنصوري للنشر.
12. محمد أحمد خلف الله. (1965). الفن القصصي في القرآن الكريم. القاهرة: مكتبة الأنجلوالمصرية.
13. محمد الدالي. (1993). الوحدة الفنية في القصة القرآنية . دون بلد.
14. محمد كشاش. (2000). صناعة الكلام كيفية اكتساب مستحسن الخطاب ومسكت الجواب في ضوء الأساليب التبوية. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر.